الفصل الاول

مدخل لدراسة النبوة والنبيين

« ياليت كل شعب الرب كانوا أنبياء ، إذ جعل الرب روحه عليهم ».

(سفر العدد ١١ : ٢٩)

*

« لم تأت نبوءة قط بمشيئة إنسان ، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس » .

(رسالة بطرس الثانية : ١ : ٢١)

*

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ، وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ .

(مريم : ٥٨)

*

مدخل لدراسة النبوَّة والنبيين

دين اللّه واحد ، ما فى ذلك شك ...

ومحال أن يُرسِل اللّه رسلاً ويتخذ أنبياء ، ثم يقوم أى منهم بالدعوة إلى غير دين الحق .. دين التوحيد الخالص الذى لا شبهة فيه .

فالمنطق يقضى بألا نجد ديانات سماوية متعددة ، بل نجد ديناً سماوياً واحداً جاء به الأنبياء والمرسلون عبر القرون والأزمان .

ويمكن البرهنة على أن دين البَشرية الأولى كان واحداً فى شكله ، توحيدياً فى موضوعه ، ويقوم أساساً على إسلام الوجه وتطويع القلب للّه ، ومن هذه البراهين :

١ - يؤمن أتباع الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - بأن آدم هو أب البشرية كلها ، وهو صنعة اللّه المباشرة ، وأول المؤمنين من البَشر ؛ فالعقيدة الحقة التى كان عليها آدم هى التوحيد الخالص . تلك حقيقة أوَّلية تتفق عليها الكتب المقدسة .

ومن الطبيعى أن تكون هذه هى عقيدة الأجيال اللاحقة له من أبنائه . فإذا حدث خلاف بين البَشر وظهرت فيهم عقائد مختلفات - وكما هو حادث الآن - فمرد ذلك ومصدره إلى طغيان الإنسان ومحاولاته التدخل فى دين اللّه ، بغياً على الحق بغير حق . وبذلك يكون نتاج اختلاف البَشرية الأولى عقائد فاسدة ، وأفكاراً منحرفة كلها بعيدة عن الحق إلا عقيدة التوحيد الخالص .

٢ - أثبتت أبحاث العالِم الألمانى الدكتور ميللر - الذى كانت له اليد الطولى فى حل رموز السنسكريتية بالهند : « **أن الناس كانوا فى أقدم عهودهم على التوحيد الخالص ، وأن الوثنية عرضت عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين** » (١) .

---

(١) من مقدمة « تفصيل آيات القرآن الحكيم » وضعه بالفرنسية : جول لابوم - نقله إلى العربية : محمد فؤاد عبد الباقى .

٣ - وفى دراسة عن عقائد القبائل الوثنية فى إفريقيا وُجِدَ « **أن فكرة الله الأعلى ، تكاد تكون موجودة لدى جميع القبائل ، بل إن مفهوم الذات الإلهية الكلية الحضور ، والذاتية الاكتفاء والشاملة القدرة ، نجده بين كثير من القبائل** ، كالزولو بجنوب إفريقيا والبايراوندا والاشانتى بساحل العاج ، والآكان بغانا ، واليروبابنيجيريا والبوكونجو بأنجولا ، والنجومية بالكونغو ، ومن اليسير إعطاء أمثلة كثيرة غير ما سبق لولا ضيق المقام .

على أننا يجب ألا يفوتنا هنا أن نذكر أن لدى الأقزام وهم أقدم سلالات إفريقيا ، كائناً أعلى يطلقون عليه اسم مونجو .. وإلى هذا الكائن الأعلى يعزو الأقزام أيضاً خلق جميع الأشياء وأنها ترجع إليه ...

كما أن هناك أسطورة من قبائل لشاجا بتنزانيا تروى أن الله قد غضب من أعمال البَشر فأهلكهم فيما عدا قلة . وجلى مدى التشابه بين هذه الأسطورة وقصة سيدنا نوح . ويروى البامبوتى والتشاجا والميروكيف أن الرب حرَّم أكل ثمار شجرة معينة على الإنسان ، وكيف أنه حينما عصى الإنسان الأمر وأكل منها جاء الموت إلى الأرض .. وجميع الأديان الإفريقية التقليدية تعتقد فيما وراء الموت بشكل أو بآخر ، كما تعتقد أن المتوفى تستمر حياته فى عالَم الأرواح .

ومفاهيم الخير والشر موجودة أيضاً فى هذه الديانات بل لعلها عميقة الجذور فيها إلى حد لا يتصوره الكثيرون .. وتعتقد قبائل التوركانا من كينيا مثلاً أن الله - مع أنه يشفى من المرض - قد يُصيب به أولئك الذين يغشون المحارم ويخالفون الطقوس الهامة » [١] .

*

وخلاصة القول الفصل فى هذا المقام هو ما قرره القرآن الكريم إجمالاً فى سورة يونس - المكية - إذ يقول :

---

(١) الرب والله وجوجو (الأديان فى إفريقية المعاصرة) - تأليف القس چاك مندلسون - ترجمة إبراهيم أسعد - ص ١٠٨

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ .. ﴾ (يونس : ١٩) .

ثم ما قرره تفصيلاً فى سورة البقرة - المدنية - إذ يقول :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة : ٢١٣) .

ومن هنا يتضح لنا حتمية الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين طالما كانت دعوتهم إلى الله الواحد الأحد خالق السموات والأرض وخالق البَشر من أبيهم آدم .

ولما كان أنبياء العهد القديم - أو بالحرى الذين ورد ذكرهم فى أسفار العهد القديم - يمثلون الأساس المشترك الذى تقوم عليه عقائد اليهود والمسيحيين والمسلمين ، كان من اللازم أن نُركِّز على ما يذكره العهد القديم فى موضوع النبوَّة والنبيين .

* *

• الصورة العامة لأنبياء العهد القديم :

لقد أولى الكثير من العلماء موضوع الأنبياء فى العهد القديم - ما يستحقه من دراسة وتمحيص ومن أمثلة لبعض الدراسات الجادة فى هذا الموضوع ، ما قام به **إريك ويليام هيتون** [1] فى كتابه « **أنبياء العهد القديم** » .

ولقد عالج هيتون فى دراسته عدة نقاط منها : لفظ النبى ، الذى استُخْدِمَ بكثرة فى أسفار العهد القديم ، ومدلول هذا اللَّفظ والأنبياء الحقيقيين والأنبياء المحترفين الكذَّابين الذين ازدحمت بهم إسرائيل وخاصة فى القرنين الثامن

---

(١) أستاذ دراسات العهد القديم بجامعة أوكسفورد .

والسابع قبل الميلاد - ومظاهر النبوّة ووسائل التنبؤ ، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الموضوع .

ورغم أن هيتون ركّزَ فى دراسته على أنبياء العهد القديم ابتداءً من موسى ومَن جاء بعده - وكان من الممكن أن يمدها لتشمل الأنبياء الغابرين الذين تذكرهم أسفار العهد القديم ، خاصة وأن كتابه هذا إنما هو طبعة حديثة لنفس البحث الذى ظهر لأول مرة عام **١٩٤٩** تحت عنوان : « **عبيده الأنبياء** » فسوف نعرض لشىء من دراسة هيتون باعتبارها مدخلاً مناسباً لدراسة « الأنبياء فى العهد القديم » وذلك مع التعليق عليها وتطويرها بما يجعل حقيقة النبوّة والنبيين فى صورتها العامة أكثر وضوحاً .

*

● لفظ النبى :

يقول هيتون : « لا يمضى الإنسان بعيداً فى قراءة أسفار الأنبياء دون أن تقابله فقرة كهذه :

« هكذا قال رب الجنود : لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين ينتبأون لكم ، فإنهم يجعلونكم باطلاً يتكلمون برؤيا قلبهم لا عن فم الرب » (أرميا ٢٣ : ١٦) .

إن مثل هذا التشهير بالأنبياء على لسان أحدهم ، ليوقعنا فى أشد الحيرة ما لم نعلم أن ألفاظاً مثل : نبى ويتنبأ ، لها معانى واسعة جداً فى أسفار العهد القديم .

إن الظاهرة المشتركة لكل الأنبياء فى العالم القديم هو دعواهم أنهم كانوا يتكلمون بسلطان من إلههم ، وكان النبى هو الشخص الذى تكلم بالنيابة عن إلهه .

ولقد استُخْدِم لفظ النبى دون تحفظ حتى إنه أُطلق على أولئك الذين تكلموا باسم آلهة الوثنيين ، مثل : أنبياء البعل الأربعمائة والخمسين الذين استخدمتهم إيزابل ، وأنبياء السوارى الأربعمائة الذين جاهدهم إيليا فوق جبل الكرمل (الملوك الأول ١٨ : ١٩ ، الملوك الثانى ٣ : ١٣ ، ١٠ : ٩) .

وأُطْلِقَ لفظ النبى كذلك على أنبياء إسرائيل المحترفين الذين عاشوا فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد .

ولهذا فإن دارس أسفار العهد القديم يواجه ضرورة التمييز بين الأنواع المختلفة من الأنبياء وأن يعرف الصفات التى تجمعهم غير لفظ النبى الذى وُصِفُوا به ، وادعاء كل منهم أنه يتكلم بسلطان إلهى .

ولا شك أن هذا العمل قد زادته صعوبة كتابات المؤلفين الذين تسلمنا منهم الأسفار العبرية ، فبالإضافة إلى تقديم الأنبياء مع الروايات التاريخية كرجال يعلنون مواعظهم للشعب ، فإن مؤلفى هذه الأسفار مسئولون إلى حد كبير عن إطلاق لقب النبى على رجال الله من أمثال : عاموس وهوشع وأشعياء وميخا ، بالرغم من إمكانية التساؤل هنا عن مدى تقبلهم لهذا اللقب .

وتتوقف الإجابة على هذا التساؤل على مقدار فهمنا لقول عاموس ، الذى لا يزال يثور جدل كثير حول تفسيره :

« فأجاب عاموس وقال لأمصيا : لست أنا نبياً ولا أنا ابن نبى ، بل أنا راع وجانى جميز فأخذنى الرب من وراء الضأن وقال لى الرب : اذهب تنبأ لشعبى إسرائيل » (عاموس ٧ : ١٤ - ١٥) .

ولقد افترض بعض العلماء أن عاموس لا يقدم هنا موعظة صريحة ، ولكنه يسأل سؤالاً ساخطاً كما لو كان يقول : كيف تجرؤ على القول بأنى لست نبياً حقاً لأنى راعى غنم وجانى جميز ؟ ألم تعلم أن الرب نادانى ؟

على أن البعض الآخر من العلماء يفضل قراءة الفقرة السابقة فى صيغة الماضى هكذا : أنا لم أكن نبياً ولا ابن نبى ... وقال لى الرب : اذهب تنبأ لشعبى إسرائيل .

وبناء على وجهة النظر الأخيرة فإن عاموس يدّعى أن وضعه الجديد كنبى يقوم على أساس نداء إلهى ، وليس بناء على اختيار مهنة أو وظيفة .

ونصل الآن إلى نتيجة هى : أن أى محاولة لتمييز الأنبياء الحقيقين بناء على التعريف النظرى المجرَّد للنبوَّة ، إنما هو عمل مقضى عليه بالفشل . ذلك أن تعريف النبوَّة - كغيره من تعاريف بعض الكلمات المذكورة فى العهد القديم مثل عقيدة وكاهن - لن يقودنا على أحسن الفروض إلا إلى ربط النبوَّة بمظاهر خارجية عرفها الناس فى حياتهم العادية . ولا شك أن مظاهر النبوَّة الخارجية - وما كان من سلوك الأنبياء وانفعالاتهم وأفعالهم لهى أقل ما نعتمد عليه فى معرفة حقيقة أنبياء الله الكبار الذين نُشغل أنفسنا بدراستهم .

ونذكر على سبيل المثال الأعمال الرمزية والحركات التمثيلية التى كانت فى مظهرها تصرفات عادية مارسها كل من الأنبياء الحقيقين والأنبياء الوثنيين على السواء . ومنها نبوءة حزقيال على أورشيم :

« وأنت يا ابن آدم فخذ لنفسك لبنة وضعها أمامك وارسم عليها مدينة أُورشليم . واجعل عليها حصاراً وابن عليها برجاً وأقم عليها مترسة واجعل عليها مجانق حولها .

وخذ أنت لنفسك صاجاً من حديد وانصبه سوراً من حديد بينك وبين المدينة وثبت وجهك عليها فتكون فى حصار وتحاصرها . تلك آية لبيت إسرائيل » .

(حزقيال : ٤ : ١ - ٣) (١)

ومن الواضح أنه لا يوجد معيار حقيقى لتمييز حقيقة الظواهر التى اقترنت بكل من الأنبياء الحقيقيين والأنبياء الكذّابين . ويتبين ذلك مما نقرأه فى سِفر التثنية (٢) :

---

(١) انظر أيضاً : الملوك الأول ١١ : ٢٩ - ٣١ ، أشعياء ٢٠ ، أرميا ١٣ : ١ - ١١ ، ١٩ : ١ - ١٥ ، ٢٧ : ١ - ٢٨ ، ٤٣ : ٨ - ٢٣ ، حزقيال ٤ : ٨ ، ٥ : ١ - ٤ ، ١٢ : ٣ - ١٦ ، ١٧ - ٢٠ ، ٢١ : ٨ - ١٧ ، ٣٧ : ١٥ - ٢٨

(٢) انظر أيضاً : أرميا ٢٨ ، تثنية ١٨ : ٢٠ - ٢٢

« إذا قام فى وسطك نبى أو حالِم حلماً وأعطاك آية أو أعجوبة . ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلاً : لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها ونعبدها . فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم » (تثنية - ١٣ : ١ - ٣) [١] .

لقد لمس هيتون كبد الحقيقة حين بيَّن هنا - بناء على دراسته وفهمه لأسفار العهد القديم - أن أى محاولة لربط النبوَّة الحقيقية بحدوث خوارق وظواهر غير عادية أو بصيغة أخرى بمعجزات مادية هو فى الواقع وهم وظنون لا تُغنى عن الحق شيئاً فى هذا المقام . وأن النبوَّة الحقة لا يمكن الحكم عليها إلا بصدق العقيدة التى تقوم على التوحيد الخالص وطهر السلوك والبذل وغير ذلك من جميع الصفات الكريمة .

* *

● الأنبياء الحقيقيون والأنبياء المحترفون :

« لقد عمل الأنبياء المحترفون فى بنى إسرائيل ذيولاً للدوائر الحكومية ، فقد حصلوا على وظائف رسمية فى الدولة لأنهم خلعوا هالة القداسة على مشاريع الحزب الحاكم [٢] ولقد كان شغلهم الشاغل أن يخبروا مواطنيهم الأشياء الحلوة التى يودون سماعها - وهذه سماها حزقيال : عرَّافة ملقة [٣] - وأن يؤكدوا لهم بحكم وظيفتهم أن كل شىء فى الحديقة جميل ، وأن يبشروهم بالسلام بينما كانت الدولة فى الواقع على وشك الانهيار الأخلاقى والسياسى [٤] .

---

(١) E.W. Heaton : The Old Testament Prophets, pp . 34 - 35 .

(٢) الملوك الأول ٢٢ : ٦ ، الملوك الثانى ٢٣ : ٢ ، نحميا ٦ : ١٠ - ١٤ ، ٩ : ٣٢

(٣) أشعياء ٣٠ : ١٠ ، أرميا ٢ : ٨ ، ٥ : ٣١ ، حزقيال ١٢ : ٢٤ ، ١٣ : ٦ - ٧

(٤) أرميا ٦ : ١٤ ، ١٤ : ١٣ - ١٦ ، ٢٣ : ١٧ ، ٢٧ : ١٤ - ١٥ ، ٢٨ : ٩ ، ميخا ٣ : ٥ ، أشعياء ٩ : ١٥ ، ٥٦ : ٩ - ١٢ ، زكريا ١٣ : ١ - ٦

ولقد خلف لنا أحد المؤرخين العبرين قصة قصيرة ممتازة فى الإصحاح الثانى والعشرين من سِفر الملوك الأول - حيث تقرأ فيها كما أراد كاتبها ، أن يبيِّن لنا - الاختلاف البعيد بين أنبياء البلاط الملكى الطفيليين ، وبين أنبياء الله الحقيقيين .

وفى القصة نجد أن ميخا بن يملة هو البطل الحقيقى أمام صدقيا نذل السلام . فقد حدث أن استدعى صدقيا ومساعديه الأربعمائة نبى ، للتوثيق على القرار النهائى لآخاب ملك إسرائيل - مستخدمهم - ويهوشافاط ملك يهوذا للقيام بحملة عسكرية ضد السوريين . ولقد عُمِلَت الترتيبات التى تجعل ألاعيبهم تتفق ومرامى آخاب :

« كان ملك إسرائيل (آخاب) ويهوشافاط ملك يهوذا جالسين كل واحد على كرسيه لابسين ثيابهما فى ساحة عند مدخل باب السامرة وجميع الأنبياء يتنبأون أمامهما وعمل صدقيا بن كنعنة لنفسه قرنى حديد وقال : هكذا قال الرب ، بهذه تنطح الأراميين حتى يفنوا . وتنبأ جميع الأنبياء هكذا قائلين : اصعد إلى راموت جلعاد وأفلح فيدفعها الرب ليد الملك » .

(الملوك الأول ٢٢ : ١٠ - ١٢)

ولم يكن يهوشافاط بالرجل الذى تقنعه هذه النبوءة رغم تأكيدات صدقيا ، لذلك طلب أن يستفتى النبى ميخا - وبعد أن قوبل هذا الطلب بغضاضة ، فإننا نقرأ الآتى :

« وأما الرسول الذى ذهب ليدعو ميخا فكلمه قائلاً : هو ذا كلام جميع الأنبياء بفم واحد خير للملك ، فليكن كلامك مثل كلام واحد منهم وتكلم بخير .

فقال ميخا : حى هو الرب ، إن ما يقوله لى الرب به أتكلم »

(الملوك الأول ٢٢ : ١٣ - ١٤)

كذلك يظهر الفرق بين الأنبياء الحقيقيين والأنبياء المحترفين فى القصة السوفسطائية التى ذُكِرَت عن بلعام فى سِفر العدد .

فلقد استأجر بالاق - ملك موآب - عرّاف الوثنيين (بلعام) ليلعن شعب إسرائيل ، وبعد ثلاث محاولات فاشلة نجد بلعام يتحوّل إلى نبى حقيقى :

« فأجاب بلعام وقال لعبيد بالاق : ولو أعطانى بالاق ملء بيته قضة وذهباً لا أقدر أن أتجاوز قول الرب إلهى لأعمل صغيراً أو كبيراً » (العدد ٢٢ : ١٨) .

ولا نشك فى أن كَتَبة القصص فى أسفار العهد القديم قد كتبوها وهم على علم بمقدار الانحطاط الذى تردى إليه أنبياء إسرائيل المحترفون . وعلى سبيل المثال نجد أنه فى زمن ميخا ، قد عاش أنبياء لم يبيعوا فقط تنبؤاتهم السعيدة لهؤلاء الذين دفعوا لهم الثمن - بل إنهم قد أعلنوا الحرب كذلك على أولئك الذين قبضوا أيديهم عنهم [١] .

كذلك فإن حزقيال يذكرنا بنبيّة كانت تمارس السحر والعرافة من أجل « حفنة شعير ولأجل فتات من الخبز » - (حزقيال ١٣ : ١٩) .

ومن المعلوم أن النبى المحترف كان له الحق فى قبض أجرة نظر خدماته ، وتنبؤاته فى إسرائيل [٢] .

وبناء على ما سبق فإننا نستطيع أن نميز بالتقريب بين الأنواع المختلفة لأنبياء العهد القديم ، وذلك بملاحظة ما إذا كانت خدماتهم منتظمة ، أم أنهم كانوا يتكلمون بما وعاه وجدانهم ، وتبعاً لنبضة الوحى التى تلقوها . ويشمل النوع الأول كل الأنبياء الذين جعلوا مقر قيادتهم فى البلاط الملكى وهم الأنبياء المحترفون .

وأما النوع الثانى فإنه يختص بالأنبياء الحقيقيين الذين رغم صِلاتهم الوثيقة بالملوك المتتابعين فإنهم بقوا دائماً مستقلين غير مرتبطين بسلطة أو حزب » [٣] .

* *

(١) ميخا ٣ : ٥ ، ١١

(٢) صموئيل الأول ٩ : ٥ - ١٠ ، الملوك الأول ١٤ : ١ - ١٣ ، الملوك الثانى ٨ : ٧ - ٨

(٣) المرجع السابق ص ٣٧ - ٣٩

• مظاهر النبوّة ووسائل التنبؤ فى إسرائيل :

« من الواضح أن الأنبياء الذين عملوا كمستشارين محترفين للسلطات الحاكمة لا بد وأنهم قد كانوا على دراية ببعض الوسائل التى قد تمكنهم من اكتشاف مشيئة اللّه ، وهى وسائل شديدة الشبه بوسائل الكهنة الوثنيين فى أرض كنعان .

وربما كان من بعض هذه الوسائل ، قراءة الطالع وإلقاء القُرعة ، وخير مثال لذلك ما كان من أمر شاول حين استخدم الأوريم ، والثميم ، للحصول على كلمة اللّه :

« وقال شاول للرب إله إسرائيل : لماذا لم تجب عبدك اليوم . إذا كان الذنب فىّ أو فى يوناثان ابنى ، يارب إله إسرائيل ، أعط أوريم ، ولكن إذا كان الذنب فى شعبك إسرائيل ، أعط ثميم . فأخذ يوناثان وشاول ، أما الشعب فخرجوا » .

إن أحداً لا يعلم بالضبط ما هو الأوريم والثميم ولكن من المحتمل أنه كان حجارة مرقمة استُخْدِمت للقُرعة .

إن كثيراً من الاتصالات الروحية المزيفة تفتننا حتى فى هذه الأيام ، تماماً كما فعل أنبياء إسرائيل المحترفين الذين تفنّنوا فى خداع معاصريهم فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . ويسوق أشعياء تعليقاً مراً على الأنبياء الذين : « ضلوا بالخمر وتاهوا بالمسكر . الكاهن والنبى ترنحا بالمسكر ، ابتلعتهما الخمر ، تاها من المسكر ، ضلا فى الرؤيا ، قلقا فى القضاء » (أشعياء ٢٨ : ٧) .

لقد كانت الخمر والمسكر إحدى الوسائل الممكنة لتلقى الإلهام .

كذلك عملت الموسيقى كعنصر إثارة استخدم فى تملك الروح للنبى [١] .

ويعطى شاول هنا المثل الحى ، فقد قال له صموئيل (النبى) : « عند

---

(١) صموئيل الأول ١٦ : ١٤ - ٢٣ ، ١٨ : ١٠ - ١١ ، ١٩ : ٩ ، الملوك الثانى ٣ : ١٥

مجيئك إلى هناك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحوّل إلى رجل آخر » (صموئيل الأول ١٠ : ٥ - ٦) .

ومن العجيب حقاً أن النبوّة يمكن اعتبارها مرادفاً لنوع من اختلال العقل أو الجنون :

« قد جعلك الرب كاهناً عوضاً عن يهوياداع الكاهن لتكونوا وكلاء فى بيت الرب لكل رجل مجنون ومتنبىء » (أرميا ٢٩ : ٢٦) [١] .

ومن المعلوم أنه كان فى إسرائيل أنبياء لم يختلف سلوكهم فى شىء عما كان يفعله أنبياء البعل من الهذيان والهوس حيث : «صرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم . ولما جاز الظهر وتنبأوا إلى حين إصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا مصغ » (الملوك الأول ١٨ : ٢٨ - ٢٩) .

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث للأنبياء الحقيقيين الذين لم يستخدموا أية وسائل مصطنعة للإثارة ، ولتهيئة أنفسهم لتلقى الإلهام . ولقد كانوا قبل السبى البابلى يتجنبون استخدام ألفاظ مثل : روح اللّه ، واستخدموا بدلاً من ذلك ألفاظاً أقل غموضاً مثل : يد اللّه » [٢] .

ولا يملك الإنسان نفسه من الدهشة والاستغراب حين يجد الأسفار المقدسة تعرض لنا أنبياء اللّه الحقيقيين ، وقد امتزجت تصرفاتهم بالخبل والجنون واقترنت أعمالهم بالكثير مما هو شاذ وقبيح ونجدهم قد فعلوا ذلك عندما غشيتهم حالة الوحى ، وجاءتهم كلمة اللّه فاستجابوا لها ، وقاموا بإخراجها مثلاً حياً للناس :

---

(١) انظر أيضاً هوشع ٩ : ٧ ، صموئيل الأول ١٩ : ٢٣ - ٢٤ ، زكريا ١٣ : ١ - ٦

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ - ٤٢

فها هو شاول لا يتنبأ إلا بعد أن يتجرد من ملابسه ويتعرى بين الناس كعادة غيره من الأنبياء . وكأن العرى هو إحدى وسائل استجلاب النبوَّة وقرين من قرائن حلول روح اللّه .

« فذهب (شاول) إلى هناك إلى نايوت فى الرامة فكان عليه أيضاً روح اللّه فكان يذهب ويتنبأ حتى جاء إلى نايوت فى الرامة . فخلع هو أيضاً ثيابه وتنبأ هو أيضاً أمام صموئيل وانطرح عرياناً ذلك النهار كله وكل اللّيل » .

(صموئيل الأول ١٩ : ٢٤)

وبالمثل سار أشعياء عرياناً بين الرجال والنساء والأطفال بعورته الغليظة لمدة ثلاثة أعوام استجابة للوحى - كما يدَّعون :

« فى ذلك الوقت تكلم الرب عن يد أشعياء بن آموص قائلاً : اذهب وحل المسح عن حقويك واخلع حذاءك عن رجليك . ففعل هكذا ومشى معرى وحافياً . فقال الرب : كما مشى عبدى أشعياء معرى وحافياً ثلاث سنين آية وأعجوبة ..

هكذا يسوق ملك أشور .. الفتيان والشيوخ عراة وحفاة مكشوفى الأستاه » .

(أشعياء . ٢ : ٢ - ٤)

وقد كان الوحى إلى حزقيال أن يأكل من عجين الشعير لمدة ٣٩٠ يوماً وقد لجسه ببراز الإنسان ، فيكون ذلك آية لبنى إسرائيل :

« وخذ أنت لنفسك قمحاً وشعيراً وفولاً وعدساً ودخناً وكرسنة وضعها فى وعاء واحد واصنعها لنفسك خبزاً كعدد الأيام التى تتكىء فيها على جنبك ثلاث مائة يوم وتسعين يوماً تأكله .. وتأكل كعكاً من الشعير . على الخرء الذى يخرج من الإنسان تخبزه أمام عيونهم . وقال الرب : هكذا يأكل بنو إسرائيل خبزهم النجس بين الأمم الذين أطردهم إليهم . فقلت : آه ياسيد الرب .. ها نفسى لم تتنجس ومن صباى إلى الآن لم آكل ميتة أو فريسة ولا دخل فمى لحم نجس . فقال لى : انظر . قد جعلت لك خثى البقر بدل خرء الإنسان » .

(حزقيال ٤ : ٩ - ١٥)

وما أمر هوشع بأقل عجباً مما رأينا ، فلقد كان أول حالات النبوَّة التى مارسها تحمل فى طياتها إليه أمراً إلهياً بمعاشرة امرأة زانية تُفرخ له أولاد زنى - هكذا يدَّعون :

« أول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع : اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض قد زنت تاركة الرب . فذهب وأخذ جومر بنت دبلايم فحبلت وولدت له ابناً .. ثم حبلت أيضاً وولدت بنتاً » (هوشع ١ : ٢ - ٦) .

واستمر هوشع يتردى فى طريق الزانيات حيث كانت نبؤته التالية تفرض عليه عشق امرأة متزوجة برجل يحبها ، لكنها تخونه وتزنى بآخرين حتى يأتى هوشع ويخطفها من تحت رجلها :

« وقال الرب لى : اذهب أيضاً أحبب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبة الرب لبنى إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى » (هوشع ٣ : ١) .

وبهذه التصرفات نجد هوشع قد هدم شريعة موسى وخالف أحكامها التى تفرض على الكاهن أن :

« يأخذ بامرأة عذراء . أما الأرملة والمطَّلقة والمدنسة والزانية فمن هؤلاء لا يأخذ بل يتخذ عذراء من قومه امرأة . ولا يدنس زرعه بين شعبه » .

(لاويين ٢١ : ١٣ - ١٥)

فما بال هؤلاء الأنبياء قد التصقت بأسمائهم تلك الغلالات الحالكة ، وأُدخلت على تنبؤاتهم مثل هذه الألاعيب ؟

إن هذا يؤكد لنا ما سبق أن توصَّل إليه هيتون من أن كَتَبة الأسفار قد جعلوا سلوك أنبياء بنى إسرائيل - حتى مَن عُرِفوا باسم الأنبياء الكبار أو الأنبياء الحقيقيين - لم يختلف كثيراً فى بعض المواقف عن سلوك معاصريهم من الأنبياء المحترفين .

*

• الأنبياء أحباب الله :

يقول هيتون : « إن الصوت المنخفض الخفيف الذى سمعه إيليا - فوق جبل الوحى - يهيىء أذهاننا لفهم النبوّة على أنها صداقة لله كما كان الحال مع موسى الذى تقول عنه الأسفار :

« ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » (خروج ٣٣ : ١١) .

إن إحدى أساسيات العقيدة التى نجدها فى العهد القديم هى أن الأنبياء قد سُمِحَ لهم بشرف الانتساب إلى مجمع الله السماوى [١] ومن أجل ذلك كانوا قدارين على سماع كلمته ، وإعلان ما يدور فى ذلك المجمع المقدس :

« إن السيد الرب لا يصنع أمراً إلا وهو يعلن سره لعبيده الأنبياء » .

(عاموس ٣ : ٧)

لكن صداقة الأنبياء لله كانت تكلفهم الشىء الكثير .

لدينا البرهان - إذا كان هناك حاجة إلى برهان - على أن الأنبياء الكبار لم يكونوا فقط مجرد أدوات بين يدى الله ، بل كانوا كذلك خدّاماً فى بيته ، ولقد كانت لهم عواطفهم وشخصياتهم التى لم تتحلل بانصهارها فى الوحى على أى صورة من صور الاتحاد الصوفى الغامض وكان لهم تفكيرهم الخاص ، لكنه تفكير يخدم أغراض الوحى .

وتظهر هذه النهضة بجلاء فى حالة أرميا الذى انتظر مدة عشرة أيام حتى جاءته كلمة الله » [٢] .

---

(١) أيوب ١ : ١ - ٢ ، ١٥ : ٨ ، مزامير ٨٢ ، ٨٩ : ٧

(٢) المرجع السابق : ص ٥١

فقد استشار الشعب أرميا أن يخبرهم عن الطريق الذى يسيرون فيه ، « فقال لهم أرميا النبى : قد سمعت . ها أنذا أصلّى إلى الرب إلهكم كقولكم ويكون أن كل الكلام الذى يجيبكم الرب أخبركم به ..

وكان بعد عشرة أيام أن كلمة الرب صارت إلى أرميا » ...

(أرميا ٤٢: ٤ ، ٧)

* *

● ملامح مشتركة بين الأنبياء :

يقول هيتون : « إن رجال اللّه حينما حملوا الرسالة إلى البَشر فإنهم بقوا بَشراً كما كانوا ، ولهذا أمكنهم أن يُبَلّغوا البَشرية فى قوة وعزم وحى اللّه الذى نزل إليهم .

وإذا أردنا الحديث عن القوة الجبرية التى تلقى بها الأنبياء وحى اللّه ، فيجب أن نعلم أنها كانت أقوى نوع من الجبرية وأعظمه ، وأنها قامت على أساس علم اختص به اللّه النبى الذى قام بتبليغه بأمانة .

إن رجال اللّه لم يولدوا لمهنة ، ولم يمروا خلال فترة للتلمذة ، ولم تكن هناك نقابة للأنبياء ينتسبون إليها ، كذلك فإنهم لم يتلقوا دراسة خاصة فى التعاليم اللاهوتية تؤهلهم لذلك . لقد انتهوا كما بدأوا رجالاً بسطاء أنقياء . وكان عاموس مثل اليشع ، كلاهما جاءته كلمة اللّه وهو يعمل فى الحقل :

« أخذنى الرب من وراء الضأن وقال لى الرب : اذهب تنبأ لشعبى إسرائيل » .
(عاموس ٧ : ١٥) (١)

إن بساطة هذا القول تعطيه الصدق والثقة فيه .

---

(١) انظر أيضا : الملوك الأول ١٩ : ١٩ - ٢١ ، وصموئيل الثانى ٧ : ٨ - ٩

وبالمثل كان موسى يرعى غنم حميه عندما رأى الشجرة المشتعلة ، وهى تماثل ما رآه أشعياء فى الهيكل (أشعياء - الإصحاح ٦) [١] .

لكن أغلب بنى آدم بدّلوا نعمة الله نقمة ، ووضعوا أمام أنفسهم أحجاراً للعثرات وذلك حين استكبروا أن تبلغهم رسالة الله على أيدى أناس مثلهم من البَشر . وتصوروا خطأ أن هداية الله للبَشرية ما ينبغى أن يتصدر لها سوى مخلوقات عُلوية كالملائكة .

حدث ذلك لنوح مع قومه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَؤُاْ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ .

(المؤمنون : ٢٣ - ٢٥)

وما كان جواب نوح إلا أن قال :

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ، إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . (هود : ٣١) .

وحدث نفس الشىء لهود وصالح مع أقوامهم عاد وثمود :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوَاْ إِلَّا اللَّهَ ، قَالُواْ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

(فصلت : ١٣ - ١٤)

وبالمثل كان موقف المشركين من العرب مع محمد رسول الله :

---

(١) المرجع السابق ص ٥٢

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً .. ﴾ (الفرقان : ٧) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِى أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ (الفرقان : ٢١) .

﴿ وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (الحجر : ٦ - ٧) .

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِىَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَّا يَلْبِسُونَ ﴾.

(الأنعام : ٨ - ٩)

فتلك حكمة الله ورحمته بخلقه أن ينزل رسله من ملائكة السماء إلى رسله من البشر - وكأنهم ملائكته فى الأرض - وهؤلاء تساعدهم بشريتهم على هداية بنى جنسهم . ولو صفت نفوس جميع بنى آدم ، وطهرت سرائرهم من كل ما بها من شوائب ومظالم ، لصاروا كالملائكة إلا أنهم يعيشون على الأرض ، ولنزلت عليهم حينئذ ملائكة الله رسلاً من السماء :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً * قُلْ لَّوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ (الإسراء : ٩٤ - ٩٥) .

*

ويقول هيتون : « **ونرى الشعور بالضعف ، كما نلمح شيئاً من عدم الثقة بالنفس كأنها عوارض مشتركة للطبيعة البَشرية ، وذلك كرد فعل مباشر لعملية الاتصال بالله التى فوجىء بها الأنبياء** . ونجد هذا فى اعتراف أرميا حين جاءته الكلمة :

« آه ياسيد الرب ، إنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد » (أرميا ١ : ٦) .

ونجده كذلك فى قول موسى :

« استمع أيها السيد الرب ، لستُ أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا حين كلمتَ عبدك ، بل أنا ثقيل الفم واللسان » (خروج ٤ : ١٠) [١] .

وفى جميع هذه الحالات نجد أوامر الله إلى أنبيائه لا يمكن تنفيذها دون مَدَدٍ من عنده . ولهذا كان يلحقها دائماً وعد « الحق » بتأييدهم والأخذ بأيديهم . فكان القول إلى موسى :

« فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلّمك ماتتكلم به »

(خروج ٤ : ١٢) [٢]

وقد يكون الوعد بالتأييد الإلهى عن طريق لمسة رمزية كما حدث لأرميا :

« ومَدَّ الرب يده ولمس فمى وقال الرب لى : قد جعلتُ كلامى فى فمك » .
(أرميا : ١ : ٩) [٣]

ولقد حدث نفس الشىء لأشعياء حين لمس الملاك شفتيه بالجمر الملتهب ، وبالمثل مع حزقيال حين أكل الدرج (حزقيال ٣ : ٢) .

وفى كل هذه الحوادث نجد إشارة واضحة إلى أن رسالة النبى لا بد أن تلقى معارضة شديدة . وبالرغم من ذلك فيجب إعلانها ، وما على الرسول إلا البلاغ : « وتتكلم معهم بكلامى إن سمعوا وإن امتنعوا » (حزقيال ٢ : ٧) [٤] .

*

وبعد أن يعتاد النبى على كلمة الله ، ويخبر طرق الوحى ، فإن كثيراً من أقواله وأفعاله تتسم بالثقة الزائدة فى النفس وفى العقيدة :

---

(١) انظر أيضاً : الخروج ٦ : ١٢ ، والقضاة ٦ : ١٥

(٢) انظر أيضاً : أرميا ١٥ : ١٩ ، والقضاة ٦ : ١٦ ، ٢٢ - ٢٣

(٣) انظر أيضاً : أشعياء ٦ : ٧ ، وحزقيال ٢ : ٨ ، ٣ : ٣ ، وصموئيل الأول ٣ : ١٩

(٤) المرجع السابق - ص ٥٢ ، ٥٣

« فلقد عبَّر كل من أرميا وخادم الله - الذى تذكره الأسفار - عن ثقتهما المتناهية فى أن نبوَّتهما قد اختصهما الله بها قبل مولدهما من بطنى أمهاتهما .

« كانت كلمة الرب إلىَّ قائلاً : قبلما صوَّرتك فى البطن عرفتك ، وقبلما خرجتَ من الرحم قدستك . جعلتك نبياً للشعوب » (أرميا ١ : ٤ - ٥) .

« اسمعى لى أيتها الجزائر واصغوا أيها الأمم من بعيد ، الرب من البطن دعانى ، من أحشاء أمى ذكر اسمى .. والآن قال الرب جابلى من البطن عبداً له » (أشعياء ٤٩ : ١ ، ٥)

وعلى كل حال فلقد كانت معرفة الأنبياء بالله عميقة الجذور ، شخصية الخبرة والتجربة ، بعيدة عن المقارنة بأى نوع من أنواع المعرفة حتى ولو كانت معرفة أهل التُقَى والورع » [1] .

*

ومن هنا يتبيَّن أن الشىء المتفَق عليه فى حقيقة أنبياء الله ورسله ، هو تأكيد بَشريتهم ، من قبل أن تأتيهم كلمة الله ومن بعد ما جاءتهم . وهى بَشرية كاملة بكل ما يلازمها من غرائز وخواص ونقاط ضعف ومواقع قوة - ثم تسمو بعد ذلك آفاقاً بعيدة فوق مستوى بَشرية كل الناس .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان : ٢٠) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (الرعد : ٣٨) .

*

هذا .. وبعد أن قدَّمنا لموضوع الأنبياء فى صورته العامة - ولأنبياء بني إسرائيل على وجه الخصوص - فإننا نستطيع الآن إلقاء نظرة خاطفة على بعض

---

(١) المرجع السابق - ص ٥٢ - ٥٤

ما تُخبرنا به الكتب المقدسة من أنباء كوكبة من أكرم الأنبياء على اللّه وعلى الناس . وفى عملنا هذا لا نقوم به من وجهة نظر التاريخ أو السيرة الذاتية ، فذاك شىء فوق الطاقة من حيث المكان والزمان ، فلا هذا الحيز المحدود من الصفحات ، ولا تلك الفترة الزمنية القصيرة التى اغتنمت لإخراج هذا الكتاب ، تسمح بشىء من ذلك . ويعنينا الآن أن نذكر بديهية يتفق عليها المؤمنون باللّه ورسالاته ، هى أن أنبياء اللّه ورسله هم مُثُل عُليا من البَشر ، جعلهم اللّه أهلاً للاقتداء ، ومن ثَمَّ وجب أن تكون صورهم أمامنا دائماً غاية فى الحسن والصفاء . فإذا حدث وأُلقِيت شبه حول سلوكهم أو التصق بقصهم شىء من المثالب ، كان من اللازم تمحيص هذا وذاك حتى نُميِّز الخبيث من الطيب ، ونستبين بذلك حقيقة الأنبياء والمرسلين .

* * *